Route Educational and Social Science Journal ISSN: 2148-5518

Volume 5(1), January 2018

Article History

Received/Geliş	*Accepted/Kabul*	*Available Online/Yayınlanma*
18/11/2017	*19/12/2017*	*10/01/2018*

خطَابُ التَّمَرُّدِ أَنْمَاطُهُ وَوَظَائِفُهُ

د. حكيم موحان عواد

الملخص :

يتناول هذا البحث فكرة خطاب التمرد في القرآن الكريم بالاشتغال على توظيف آليات تحليل الخطاب ، يقوم البحث بفحص الخطاب المذكور مستعرضا تممفصلاته وبنيته في إلماحة إلى الكشف عن بنيتيه العميقة والسطحية متجاوزا فيها الأطر النظرية للتحليل اللغوي البسيط الذي يقف عند الحدود الأولى للخطاب من دون استكناه أبعاده المتوارية في طاقة اللغة ، مراعيا بالدرجة الأساس البعد النفسي في تشكل الخطاب وتمظهره إن في الإيجاب أو في السلب ولذا جاءت تفاصيل البحث في النحو الآتي :

المطلب الأول : مدخل نظري في مفهوم الخطاب

المطلب الثاني : القرآن والتمرد (السمات ، الأنواع ، الانعكاسات)

المطلب الثالث : التمرد قراءة في المفهوم والإجراء .

المطلب الرابع : قسما التمرد

ـــ التمرد الإيجابي

ـــ التمرد السلبي

المطلب الخامس : أنماط التمرد القرآني

1 ـ التمرد اللاهوتي

2 ـ التمرد الاجتماعي

3 ـ التمرد السلطوي

4 ـــ التمرد العنيف

5 ـ التمرد الجنسي

نتائج البحث

المطلب الأول : مدخل نظري في مفهوم الخطاب : ــ

يُعدُّ الخطاب _ أيّ خطاب _ نشاطًا اجتماعيًّا صرفًا , وإنْ كان يؤدى بنحو الفردانية , فالذات الـمُتلفِظة وإن كانت تقوم بفعل التَّلفظِّ الفردي إلَّا أنَّها تبقى محكومة بسلسلة من العلاقات الاجتماعية المتغايرة , بل والمتعارضة في بعض الأحيان .

وما بين الخبرة الفردية وصور النشاط الاجتماعي يقع الخطاب ويتشكل , ومن المعلوم أنَّ المفردات لاتتغير معانيها بتغاير المستعملين لها , ولا بتغاير القضايا التي تدور في أفقها , بل بفعل تغاير أنظمة الخطاب وتلوّنه إذ ترى (ماكدونيل) : أنَّ تغاير الخطاب سببه صراع الطبقات في التاريخ[1] .

والخطاب القرآني ليس بدعًا من القول , وإن تغايرت النظرة إليه تبعًا لتغاير الأنظمة الفكرية التي تناولته, فانشغلت أغلبها في مقام تحقيق الخطاب في الأزل ؛ لانعدام حضور المخاطبين كشخوص تفهم الخطاب وتحليله ما بين معارضٍ لتسميته بالخطاب قديمًا وتحقيق فعل التلفظ حديثًا .

ولعلَّ ما يميّز الخطاب القرآني أنه خطاب عابر لثقافة الزمان والمكان اللذين اصطبغت فيهما عباراته , فانقسامه إلى خطاب داخلي يُتيح الاتحاد بين المرسل والمتلقي , فيشكلان كُلًّا واحدًا , أمَّا الخطاب الخارجي فيتحقق عبر مرسلة يبثها متكلم , ويتلقاها مستمع , سواء أكان شخصًا حقيقيًّا أم وهميًّا متخيلاً[2] .

وعلى الرغم من اهتمام العلماء في تحديد مفهوم الخطاب إلَّا أنَّهم واجهوا صعوبة في تبيينه , فـ(فان دايك) _مثلاً _ يرى أن الخطاب لم يكن موحدًا منذ نشأته سواء من الناحية الغائبة أم الشكلية[3] .

لقد نظر الأوائل للخطاب القرآني نظرة براغماتية بحتة , ترى في تحقيق البعد الوظيفي لمجموعة من الملفوظات غاية محددة , وهذه الغاية لا تتصف بآنيتها وببعدها الوقتي بقدر ما يمكن أن تكون عابرة لعنصر الزمكان الذي نزلت في مجموعة الخطابات القرآنية .

---

[1]- مقدمة في نظريات الخطاب , ديان مكدونيل ٢٠٠٦ المقدمة .

[2]-معجم المصطلحات الأدبيةسعيد علوش ، 1985, مادة خطاب .

[3]- ينظر : الخطاب ، ساره ميلر : 25 .

لقد غدا النَّصُّ القرآني ليس مجموعة ألفاظ تشكِّل مجموعةً من البُنى الصغيرة فحسب , كما لم يعد الخطابُ طريقةً للتعبير أو حديثًا متساوقًا أو مجموعةَ عملياتٍ فكريةٍ مترابطةٍ , أو تجليًّا لذاتٍ واعيةٍ تتأمَّلُ وتعرفُ وتُعبّرُ , وإنَّما أصبح _ الخطاب _ إمكانًا وشرطَ وجودٍ ونظامًا , أصبح حقلاً تتمفصلُ فيه الذواتُ, ومجموعةَ علاقاتٍ تجدُ فيهال مرتكزًا له[4] .

ولـمَّا كان الخطابُ القرآنيُّ يمتازُ بحمولةٍ دلاليةٍ حاويةٍ لمضامين النسقِ الثقافيِّ لطبيعةِ الحوارِ أو المحادثات بين الناس , اتَّصفَ الخطابُ بجملةٍ من الخصال والوظائف مكَّنته بأنْ يعكسَ الجنبةَ الأيديولوجية لتلك المجتمعات وطريقة تفكيرها باللغة وفي اللغة . فالثقافة سلوكيات تواصليَّة بين الناس في المجتمع , وهذه السلوكيات قوامها الخطاب بشتى أنماطه ووظائفه .

إنَّ لأنساقَ الخطابيةَ التي يمرُّ بها خطابُ ما عبرَ تشكّله خلالَ الزمنِ والتاريخِ تجعلُه عابرًا لعنصرِ الأفقِ التاريخي , سواءٌ أكانَ الخطابَ يؤدّى بملفوظاتٍ لغويَّةٍ مركَّبةٍ أم بوسيلةٍ أخرى , أشارَ إليها الخطابُ بنحو الرمزِ أو الإيحاءِ .

ونتيجة لما تقدَّم نُظِرَ إلى الخطابِ القرآني على أنَّه ليس خطابًا واحدًا بل متعددًا تبعًا لتغاير عناصر داخليَّة يقتضيها سياقُ النَّصِّ أم عناصر خارجيَّة يتوسل بها المتلقي للوصول إلى حيثيات الخطاب , فمن خطاب قوة وتسلطه وهيمنته إلى خطاب رأفة ولين وشدة ورحمة وتمرد وعصيان ... إلخ .

المطلب بالثاني : القُرْآنُ والتَّمَرُّدُ (السمات ، والأنواع ، والانعكاسات)

لم يكن بعيدًا أن نرى نوعًا أو نمطًا من الخطاب يُسمى بالخطاب (الـمُتمرّد) أو خطاب التَّمَرُدِ ؛ إذ التمردُ صفةٌ ملازمةٌ للكائنِ البشري , فالخطاب المتشكِّل داخل النص القرآني هو بمثابة مُنجَز ثقافي يعكس طبيعة تفكير ذلك الكائن وطريقة تعامله مع أقرانه أو أوليائه , ومن الواضح أنَّ نمط التمرد وخطابه لم يقتصر على خطاب بشر إزاءَ متلقٍ بشريٍّ , بل شملَ خطاب التمرد علاقة الإله بـ(الإنسان) و (الجان) و(الملائكة) و...و ... إلخ .

يمثلُ التمردُ واحدًا من سماتِ الخطابِ القرآنيِّ وقضيةً مهمةً من القضايا التي تحكمُ طبيعةَ العلاقاتِ الدلاليةِ النَّصِّيَّةِ؛ إذْ يُمثِّلُ (التمرد) حالةَ الرفضِ لأَشْكَالِ الموقفِ والحالاتِ المجتمعيَّةِ التي تواجهُ (الإنسان) كوجودٍ مُجرَّدٍ خالٍ من مظاهرِ القسوةِ , مُتعلِّقًا بأسبابِ

[4]- ينظر مفهوم الخطاب في فلسفة فوكو ، الزواوي بغورة 2000م : 92 .

الفطرةِ السَّليمةِ التي جُبِلَ عليها , إذ تُمكَّنُ فلسلفةُ وجودِ الإنسانِ أنْ يتحولَ من مُتَلَقٍ صامتٍ إلى متفاعلٍ مع الحياةِ , محاولاً مواجهة وسائل الظلم والتخلف والانحطاط .

فَقَدْ وردَتْ في النَّصِّ القرآنيِّ خطاباتٌ متعددةٌ (قوة , سلطة , عنف , تمرد , ... إلخ) , متغايرة ومتشابهة , تحملُ نمطًا مُتمرِّدًا ليس بنحوِ التأسيسِ للتمرُّدِ الشخصي , وإنَّما بنحوِ الفعلِ في العالمِ الخارجي , فالخطاباتُ المقدَّسةُ تعكسُ بنحو مبدأ الصورلوجيا لقضيةِ العنفِ والعنادِ والتسلطِ , سواءٌ بنحو السلبِ (تمرد سلبي) أم بنحو الإيجابِ (تمرد إيجابي) .

فالتمرُّدُ الذي بين الإله والجان مختلف عن تمرد الحيوانات إزاء الأنبياء أو الأولياء ؛ لأنَّ الفضاء الكوني الذي تسبح به هذه الموجودات مختلف زمانًا ومكانًا عن مثيلاتها أو أقرانها .

إنَّنَا بصددِ موضوعٍ لا يعكسُ الجانبَ اللغوي أو الدلالي فحسب , بل موضوع تصنع فيه التركيبة النمطية للخطاب العجائبية , وذلك من خلال تبيين طبيعة السلوكيات النفسية للأشخاص والمجتمعات المتمردة (إيجابيين أو سلبيين) أنبياء أم شياطين أم مردة أم غيرهم , ولذا نلحظ حضور العنصر النفسي بشكل كبير , باعتبار أنَّ التمرد صيغة سايكلوجية متأصلة بالإنسان , لكنها تظهر تبعًا لتغاير النسق الثقافي الذي توضع فيه ؛ لذا تتغاير أنظمة الخطاب القرآني وصوره في نقل أو تصوير (مبدأ التمرد) سواء من خلال القول أو الفعل استنادًا للوسيلة التي يتبعها صاحب الخطاب (المحكي) .

فتمردُّ الشخصيةِ المتكلمة كعلامة بنيوية حاملة لعنصر اللغة تجعل الوسيلة الخاصة بالتواصل حاملة لشحنات التمرد هذه , تارة بالقول (كالتلفظ بعبارات الضجر والعناد مصحوبًا بـ لاءات متعددة ...) , وأخرى بفعل منجز بالخارج , وإذا تحولت تلك الخطابات المتمردة إلى فعل تداولي منجز توسَّلت بالعنف رقعة لغوية تداولية في مساحة الخطاب اللغوي القرآني , وعليه سيطرح البحث جملة من الأسئلة تشكل العمود الفقري للبحث منها :

- التمرد خاص بالشخصية أم بالخطاب أم بكليهما ؟
- التمرد سياسي أم اجتماعي أو أيديولوجي ؟
- التمرد موقف عقلي ذهني أم فعلي تداولي ؟
- ما هو التمرد ؟ وكيف يغدو التمرد خطابًا لغويًّا ؟
- التمرد الإنسان أم لوازمه ؟
- هل يمكننا وصف بالخطاب بالتمرد ؟ ثم ما سمات ذلك الخطاب ؟ وما صفات الفعل الأدائي لسلوك الفرد ؟ ثم ما صفات الانصياع والعناد والعنف والعدوان كلوازم مع أنماط التمرد ؟
- التمرد تجربة فردية أم اجتماعية ؟ وما صفات كل واحد منهما ؟

2_ خطاب تمرد أم لغة تمرد ؟

الحديث عن النص أو الخطاب يستدعي حضور عنصري الزمان والمكان , فلكي تمتلك اللغة ناصية التجاوز الزمني أو التماهي على ذلك الزمكان , لابدَّ أن ينتقل الكلام من مجرد وصفة بأنه نص أو لغة إلى تحققه كخطاب , فلا يمكننا استخراج المعنى الكامل من النص ما لم نتصدى له بوصفه خطابًا[5] .

وفي ضوء ذلك تصبح النصوص نظام عمل ونمط تفكير وإنجاز وذلك عندما تنتقل من ماهيَّة الدال والمدلول إلى نظام خطاب يخاطب الأفكار والمعتقدات والقيم والأعراف , باعتبارها نظم تتحكم بطبيعة تشكّل الخطاب الخاص بها , لذا نرى أنَّ التمرد صفة عارضة للخطاب عندما يقتضي الموقف وشبه معدوم في النص الموجود مجرد عبارة عن رموز (دال ومدلول) , فعلماء الأنثروبولوجيا يرون أنَّ الكلام ليس صفة غريزية مثل الأكل والسير والنوم والشرب بل يمثل صفة حضارية أو ثقافية أو اجتماعية ونفسية , فاللغة (أنثروبولوجيًّا) هي ((الأسلوب الإنساني غير الغريزي للاتصال ونقل الأفكار والانفعالات والرغبات عن طريق نظام مؤلف من الرموز تتولد تلقائيًّا أو عفويًّا في التفاعل البشري))[6] .

إنَّ أهمَّ ما يميّزُ خطاب التمرد عن لغة التمرد , أنَّ مكونات الخطاب (التمرد) فيه تختلف عن مكونات الخطاب كلغة أو كوجود رمزي كلامي مجرد , ففي خطاب التمرد يبرز الخطاب الجسدي والكلامي والصوتي بنحو منجز داخل لفظ الخطاب اما في لغة التمرد فيكون انتقاء الدوال على أثر تحدثه وما تنشئه داخل النظام الجملي الذي تنساق فيه , بمعنى أن ألفاظ العنف والقوة والبطش والامتناع والعصيان تمارس وظيفتها كدوال مجردة بعيدة عن الأنساق التي يسير في ضوئها الخطاب .

إذ الخطاب في معناه الواسع كل تفوّه يفترض جدلاً أن هناك متكلمًا وسامعًا وفي داخل المتكلم هناك القصد الذي يعني التأثر في الآخرين بطريقة ما ... فالخطاب يكون مكتوبًا فضلاً عن كونه محكيًّا , وفي الممارسة يتحول المرء من الذات إلى الآخرين بشكل فوري[7] .

ومن البديهي أنَّ كلَّ نصٍّ يُعدُّ استجابة لنصوص انتحت قبله ولغة سبقته وقضايا إنارتها اللغة من قبل, فالخطابات أكثر من كونها لغة , فهي طرق أو سبل تسلكها الجماعة كي تجد

---

[5]- اللغة والثقافة د كريم زكي ، 1986 م : 97 .

[6]- علم النفس الاجتماعي د سناء عيسى الداغستاني ، 2017 م : 271 .

[7]- الخطاب ، ساره ميلر : 15 – 16 .

لنفسها مكانًا في العالم الذي نعيش , أو هي أشكال من الحياة تتماهى مع الكلمات والأفعال والقيم والمعتقدات والمواقف والهويات الاجتماعية[8] .

وإذا ما أمعنَّا النظر لمفهوم الخطاب في فلسلفة فوكو نجده يتجاوز الحدود والنظرية للخطاب بانه مجموعة أحداث وتواصليات تحدث في زمان ومكان ما ؛ ليعلن أنَّ الخطاب أساسه الممارسة , فهو قد غادر أفق العبارة واللغة ليلتحق بأفق النسق والأيديولوجيا والمثاقفة , فالممارسات التي يقودها التمرد في الخارج ما هي إلا صورة فعلية عملية لعملية الخطاب ؛ إذ لم يعيد الخطاب طريقة للخطاب , أو حديثًا متساوقًا أو مجموعة عمليات فكرية مترابطة أو تجليًّا لذات واعية تتأمل وتعرف وتعبر , وإنَّما أصبح إمكانًا وشرط وجود ونظامًا , أصبح حقلاً تتمفصل فيه الذوات ومجموعة علاقات تحد فيها مرتكز له[9] .

وعلى ضوء ذلك تصبح القيمة الفنية للخطاب ليس باعتبار الأدوات والوسائل التي يستعملها ويتوسل بها , بل باعتبارها ذاتية الخطاب نفسه فخطاب التمرد _ مثلاً _ هو الذي يهيمن على كل خطابات العنف والقوة والسلطة والعصيان , الدولة , السياسة , المجتمع ... إلخ ؛ ليبني له مكنًا بعيدًا عن ماهيَّة الدال والمدلول ليصبح نسقًا متغايرًا عن أصل وجوده , لكنه غير منفكٍ عنه .

إذ يتعامل كثير من المنظرين المعاصرين (المتأثرين بمشيل فوكو) مع اللغة ليس باعتبارها نسقًا موحدًا متناغمًا بشكل كلي لكن على أنَّها بنية تتشكل من أنواع مختلفة من الخطاب مثل العلم , القانون , نظام الحكم , الطب , الصحافة , الاتجاهات الأخلاقية ... [10] .

المطلب الثالث : التَّمَرُّدُ (Rebellion) قراءة في المفهوم والإجراء :ـ

يدور مفهوم التمرد حول مجموعة من المفاهيم المختزلة داخلة , فتارة نرى مفهوم التمرد يدل على العصيان وأخرى يدل على التململ والطغيان والمعارضة والعناد والاحتجاج .

وإذا استقرأنا مادة (مَرَد) في المعجم اللغوي نجد هذه المعاني حاضرة في جذرها اللغوي , ولعلَّ اللافت للنظر في المعاجم اللغوية أنها ربطت التمرد بالجانب السلبي للظاهرة استنادًا

[8]-اللغة والثقافة ، د .كريم زكي ١٠٣

[9]- مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو ، الزواوي بغورة : 92 .

[10]-معجم المصطلحات الأساسية في علم العلامات دانيال نشانيلدر : 52 .

إلى انحصار معناها القرآني الظاهري بهذا السلوك السيئ أو المخالف , والواقع خلاف ذلك , فالتمرد مصدر الفعل (مَرَد) على وزن (تفعَّل) , وقيل : مرد المارد : العاتي مَرُد على الأمر (بالضم) يمرد مرودًا ومَرَادة , فهو مارد ومريد وتمرد : أقبل وعتا , وتأويل المرود , أن يبلغ الغاية التي تخرج من جملة ما عليه ذلك الصنف[11] .

أمَّا المعاجم القرآنية فقد حصرت المعنى بالجانب السلبي حصرًا , فصاحب المفردات يرى أن (مَرَد) من المارد والمريد من شياطين الجن والإنس المتعرِّي من الخيرات , من قولهم شجر أمرد إذا تعرّى من الورق , ومنه رملة مرداء لم تنبت شيئًا , وروي ((أهل الجنة مُرْدٌ)) , ومعناه : معرون من الشوائب والقبائح , ومنه قيل : مرد فلان عن القبائح , ومرد عن المحاسن , وعن الطاعة , ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ﴾[التوبة:101] [12] .

وقد يتفق (ألبيركامي) مع المنطق القرآني للتمرد , فهو يرى أن أكثر التمرد سلبي , ومثاله العبد الذي يعصي فجأة أمر سيده , يشتمل بالضرورة على أن ثمة عنصرًا إيجابيًّا , فإذا ما رفضت أداء عمل أكرهت عليه , فهذا يعني في دخيلة نفسي إرادة غامضة نوعًا ما في أداء نقيضه[13] .

أمَّا المعاجم الطبيَّة النفسية فد تحدثت عن فعل التمرد وحصرته بالجانب السيكلوجي والنفسي للأشخاص لاسيَّما المراهقين منهم , فقد ربطت مصطلح (التمرد) أو (متمرد) بالسلوك في مرحلة المراهقة , وعند الجنوح والانحراف بالنسبة للصغار والكبار[14] .

أمَّا التمرد اصطلاحًا فيكاد يُجمع فيه جميع الصفات التي احتواها جذره اللغوي , فهو نمط من أنماط السلوك الاجتماعي الموجَّه إلى أشكال السلطة المختلفة ومظاهر النفوذ للخروج عليها , وإعادة بنيتها وسمات مظاهرها بالشكل الذي يخدم الفاعلين , ويحقق أهدافهم , ويعيد إليهم قدرًا من السلطة والنفوذ[15].

---

[11]- لسان العرب ابن منظور ، 2008م : ج3 / 400 .

[12]- المفردات ، الراغب الأصفهاني ، 2008م : 486 .

[13]- البيركامي حياته وأدبه وفلسفته من كتاباته ، مورخان لويسك : 125 .

[14]- معجم مصطلحات الطب النفسي ، د .لطفي الربيني : 154 .

[15]- المؤسسة العربية السورية ، مجموعة باحثين ، الموسوعة العربية ، 1996م : مج6 / 861 .

إلا أنَّ أهمَّ ما يمكنُ ملاحظتَهُ أنَّ أغلبَ من تناولَ مفهومَ التمرد كمصطلح جعل ميدانه النفوذ والسلطة أو الخروج على نواميس المجتمع وقوانين النظام العام وعدم الاعتراف بسلطان أي سلطة[16] .

أما البيركامي فقد عرَّفه بأنَّه ((تجربة فرديَّة أقرب ما تكون إلى حالة القلق الصادر عن مواجهة عالم لا معنى له , عالم عبثي لا معقول , مُقدِّمًا بذاك نماذج للتمرد تنتهي إلى التدمير والقدسية , وقد رأى أن التمرد على نوعين , الأول : تمرد الإنسان على الإنسان ضد ذاته , والثاني : هو تمرد الإنسان على الإنسان من أجل ذاته)) [17] .

والواقع أنَّ التمرد كظاهرة متواردة في القرآن لم تقتصر على تصنيف كامل للتمرد , وإنما كان مظهر التمرد مظهرًا حاضرًا ومجاوزًا للزمان والمكان فمنذ بدء الخليقة وعنصر التمرد يدور في أفق المتحاورين , والقرآن مليء بمظاهر التمرد , سواء أكان تمردًا إيجابيًّا أم سلبيًّا , وقد استطاع الخطاب القرآني أن يبرر دوافع التمرد المتنوع , منها ما يكون خروجًا عن الأعراف المألوفة والأعراف الظالمة , أو خروج عن النسق الديني المغاير وغيرها من الدوافع التي أبرزتها الآيات القرآنية وعكس الخطاب الجانب النفسي أو الأيديولوجي للشخصيات المتحاورة المتمردة .

ولعلَّ تمرد الإنسان هو الملمح البارز في القرآن , فالإنسان المتمرد هو الشخص الذي لا يجاوز الواقع بسبب قسوة الظروف التي تتحكم فيه , ولما كان كذلك فهدفه إحداث تغيرات جزئية في هذا الواقع[18] .

والقرآن الكريم يطرح الذوات المتمردة (إنسان , جن , ...) بتمظهر خطابي وذلك من خلال الصورة التي يعبِّر بها عن تلك الشخصية , مستعينًا بالحوار ليكشف عن ذاته الذات المتحاورة المتمردة ((فليست الذات في نهاية أمرها مادية فحسب وهكذا تكون في حقيقتها موضوعًا)) [19] .

ونتيجة لحضور عنصر التمرد في أغلب مناحي الحياة الاجتماعية أو الفكرية تنوعت مظاهر التمرد وأنماطه وأنواعه , إذ يشكل التمرد الإيجابي والسلبي المظهر البارز لأنواع التمرد في الخطاب القرآني , فيتنوع على إثر ذلك أنواع التمرد بتنوع مظاهر السلطة وأشكالها , والتمرد ليس وليد عصر ما , بل وليد الإحساس بالظلم الذي ينطوي على القهر

---

[16]- معجم المصطلحات العربية ، مجدي وهبة ، 2010م : 120 .

[17]- الإنسان والتمرد ، ألبير كامو 1983م : 27 , و ميشيال فراجونار التيارات الثقافية الكبرى في القرن العشرين : 41 .

١، مفهوم التمرد عند كامو وموقعه من ثورة الجزائر ، محمد تيجاني 1984م : 4 .

[19]- خطاب السلطة من هوبز إلى فوكو ، باري هندس ، 2005م : 23 .

والانصياع للنظم أو القوانين أو الأعراف , ولذا يأخذ التمرد شكلاً سياسيًّا أو اجتماعيًّا عندما يتمرد بعضهم على التقاليد والنظم المجتمعية الوضعية , ويأخذ شكلاً فكريًّا عندما يراد منه النيل من الأفكار والآراء السائدة في عصر من العصور[20] .

إنَّ أغلب ما كتب عن التمرد أنه يعكس حالة من حالات وسلوكيات المجتمع الذي يظهر فيه التمرد , بمعنى أن استقراء حالة مجتمع ما أو حركة ثورية أو إصلاحية ما يعكس جانبًا من الأنماط والصور التمردية لكنه في القرآن مختلف منذ بدء الخلق , ومنذ أن وجدت فسحة الحوار وتحكيم العقل برز عنصر التمرد , سواء أكان بنحو الدافع النفسي أم العقدي أم الفكري .

وقد عزا بعض الباحثين إلى أن هناك عوامل تكوّن فعل التمرد , منها ما هو بايلوجي وآخر اجتماعي هدفه إشباع الحاجات الأساسية للإنسان في بيئة مجتمعه الأولى (الأسرى , المدرسة , الجامعة ...) , وهناك عناصر أخرى كالعنصر السيكولوجي والعنصر الثقافي [21] .

ونتيجة لهذه العوامل برز إلى السطح نمطان أساسيان للتمرد , شكّلا على إثرهما جملة من الأصناف التي وردت في القرآن وعرضها الخطاب القرآني , وهما : التمرد الإيجابي والتمرد السلبي .

المطلب الرابع : قسما التمرد : ــــ

1_ التمرد الإيجابي :

هو التمرد القائم على رفض الشائع والمستقر والمعروف داخل المجتمع , إذا كان غير متوافق مع العقل والفطرة السليمة , وهو التمرد أنموذج متشعب الأبعاد يبحث عن الفردوس المنشور في الفانية والباقية , تمرد لاهوتي ودنيوي في نفس الوقت , ليس تمردًا ميتافيزيقيًّا غيبيًّا ينتظر الخلاص على يد القدر فحسب بل هو تمرد نضالي[22] .

ومن أجل ذلك الهدف تميز التمرد الإيجابي بأنه يدعو إلى جملة من الأهداف منها دعوته إلى ترك العنف والميل إلى الاعتدال ونبذ التطرف , وهو لا يقتصر على فئة

---

[20]- الموسوعة العربية : مج6 / 861 ، مصدر سابق.

[21]-التمرد , يجادل الواقع , نضال حمارنة بحث منشور في 20 / 11 / 2013م .

[22]- آفاق التمرد ، فاروق القاضي ٢٠٠٤ م ، ص: 17 .

مجتمعية دون أخرى بل يشمل الأفراد والجماعات والأمم , كما يدعو إلى الحرية والصلاح ورفض الظلم ورفع الحيف .

ولنا في المسار الدعوي للأنبياء دلالة واضحة , فقد ركّز أغلب الأنبياء الذين تمردوا على عادات وأعراف مجتمعهم أن مهمتهم الأساسية هي تغيير واقع أممهم دون أجر أو منفعة , فالمبدع المتمرد الحقيقي لايمكن أن يرفع راية عنصرية ولا تعصبيًّا طائفيًّا[23] .

في حين يرى البيركامي أن التمرد يتصف بالإيجابية العميقة ؛ لأنه يكشف عن عناصر كامنة في نفس الإنسام لابدَّ من الدفاع عنها والحفاظ عليها , وهو يرفض فكرة أن التمرد ظاهرة سلبية ؛ لأنه لا يؤدي إلى السائدة وتحدٍّ للأسباب المؤدية إليها , وهو _ أي الإيجابي _ ينطوي على مضمون إنساني أخلاقي , وهو يدعو إلى سياسة التخلي عن العنف إيمانًا وتقديرًا للحياة الإنسانية واحترامًا لها[24] .

وإذا كان التمرد الإيجابي يتصف بكل ما ذُكر سابقًا فأن خطابه سيتلوَّن بمفردات وتراكيب تفرضها عليه هذه الصفات , فنرى خطاب الليونة والسماح والعفو الصفح طاغية على خطاب الأنبياء المتمردين على أقوامهم , ففي عالم التمرد دائمًا هناك تأكيدًا للذات والمجتمع في الوقت نفسه , وهناك بعثًا للقيم الأخلاقية وإيمانًا مهما كان خفيًّا ومسحوقًا بالإنسان والخلاص أو بإمكانية الخلاص[25] .

وعليه فالخطابات _ أي خطاب _ لابدَّ أن تكون حاملة لجملة من أفكار ومعتقدات الجماعة المتخاطبة ؛ لأن ما ينتقل من خلال النصوص / الخطابات هي المعارف , والتصرفات , وهياكل المجتمعات, ومؤسساتها , وأجواؤها , وطبقاتها المتعددة , والعلاقات السائدة إليها ؛ وهي أيضًا ما يجب أن يبحث لا الجمل والكلمات والإشارات وغيرها في النص / الخطاب فحسب , وإنما في جميع ذلك[26] .

2_ التمرد السلبي :

هو على النقيض من الإيجابي في اللغة والخطاب والسلوك والتصرف , بمعنى الخروج عن كل القوانين المنطقية والعقلية والطبائع والسلوكيات ؛ لذا تبرز في هذا الصنف خطابات تتف بالعنف والقسوة , كخطاب القتل والتعذيب مثلاً , إذ تعد مفردات مثل (الموت , التنكيل

---

[23]- المصدر نفسه : 24 .

[24]- الموسوعة العربية : مج6 / 861 . مصدر سابق

[25]- من الصمت إلى التمرد ، ادوارد الخرّاط 1994م : 215 .

[26]- النص والخطاب ، هابشايد ، 2013م : 21 .

, الغدر , ...إلخ) أساسًا لتشكّل الخطاب كقصص هابيل وقابيل وفرعون وغيرهم , في حين أن هناك لونًا من التمرد السلبي قائم على الغدر والحيلة والمكر , كتمرد إبليس (لعنه الله) .

ولعلَّ العنف الممارسة الأبرز في هذا النمط من التمرد , أ يلجأ إليه المتمرد السلبي دفاعًا عمَّا يمتلكه من قوة وسلطة , مثل تمرد فرعون , وكيف كان يقتل الأبناء ويستحيي النساء , بل يصل الأمر إلى القتل وهو على مستويات العنف المادي , في حين أن هناك عنفًا لغويًّا يمارس المتمردون , فليس العنف فعلاً ماديًّا يمارس فرد ضد فرد آخر , بل هو أيضًا حدث لغوي أو فعل كلامي يعبر عن موقف سيكلوجي انفعالي ينجر في مقام تواصلي تفاعلي سمته البارزة التنازع والخصام , فيولّد العداء والكره والبغضاء , بل المضرة والأذى , هو شعور وانفعال داخلي , وسلوك ورد فعل خارجي , وهذان المظهران _ الداخلي والخارجي _ تعبر عنهما اللغة في كل مستوياتها الرمزية والبنيوية[27] , ولنا في قصة هابيل وقابيل خير شاهد على التمرد السلبي* .

المطلب الخامس :أنماط التمرد القرآني : ــ

يرتكز التمرد القرآني على نمطين أساسيين أشرنا إلى مفهومهما _ قبل قليل _ وهما (التمرد الإيجابي والسلبي) ويقع تحت هذين القسمين أنماط متعددة تمارس سلطتها على تلوين الخطاب القرآني , فمن العنف والقسوة إلى الجنس والانحراف والعصيان ...

وأوَّل تمرد ساقة القرآن لنا هو تمرد إبليس (لعنه الله) حيث يعد الأعمق حضورًا لما يتشكل بعده من تمرد , فالتمرد أول خطيئة يستعرضها الخطاب القرآني في حضرة القدس الإلهي , ويمكننا أن نطلق عليه بـ :

1_ التمرد اللاهوتي :

ونقصد به التنازع بين الإله وخلقه , سواء أكانوا من الأنس أم من الجن , ونسبة تسميته باللاهوت أو الكوني استنادًا إلى مقام التمرد ومكانه اعتباريين , فهذا النوع لم تشهده الأمم ولم يطلع عليه أحد , سوى أن الخطابات داخل النصوص المقدسة رسمت لنا طبيعة الحوار ومظاهر الحوار التمرد الحاكمة عليه .

فتبرز في هذا النمط من التمرد مفردات تتناغم وطبيعة التمرد , فتجد الاعتداد بالخليقة وعدم قبول التمايز وأخ دور الإله , ومن صور ذلك التمرد قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ

[27]- لغة العنف وعنف اللغة ,د .مراد موهوب بحث ، 2013م .

* أعرضنا عن ذكر القصة هاهنا ؛ لأننا سنقوم بسردها وشرح خطابها في باب التمرد العنيف .

صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ* قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ* قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ* قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ* قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ* قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ* ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ* قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الأعراف:11-18] *.

في أغلب الحواريات (القرآنية خصوصًا) تبرز ذاتان متجاورتان (الذات المرسلة والأخرى المتلقية) ويكون الرابط بينهما هو الخطاب , ولعلَّ الخطاب القرآني في قصة إبليس تميز بتقابل دلالي عماده اللين واللطف من جهة الباري والقسوة والانتقام من جهة إبليس , فقد شكل الحوار (خطاب التمرد) الجانب الأبرز في مقام تحدي جبروت الله , وإذا ما عملنا مقارنة بين الذاتين يبرز لنا نمط التمرد في خطاب إبليس بصورة تعكس طبيعة الخطاب النفسي الذي تشكل داخل قرارة نفس إبليس

الله	إبليس
قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس	قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين
قال فاهبطوا منها ...	قال انظرني إلى يوم يبعثون
قال إنَّك من المنظرين إلخ	قال فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم إلخ

لقد أقيم الحوار بين إبليس وذات الله المقدسة على مغالطات بديهية كبيرة أوقع فيها إبليس نفسه ؛ ونتيجة لتلك المغالطات أقام إبليس التمرد استدلالات خاطئة , وأول وسائل التمرد التي استعملها إبليس لإثبات صحة مدّعاه هو قياسه الفاسد حيث فضّل إبليس خلقه على خلق آدم υ من خلال ترجيح أفضلية على آدم دون تقديم مرجّح لذلك ممكن أن يستند إليه إبليس , فتحد خطاب التعالي والتمرد طاغية خاصة عندما خاطب الله I , قائلاً : ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ فقد أقام قياس التمرد عنده على ألَّا يسجد الفاضل

* اخترنا قصة تمرد إبليس في سورة الأعراف ؛ لأنها ذكرت بصورة مفصلة , فقد وردت مجملة في (البقرة , والحجر , والإسراء , والكهف , وطه , و ص)

للمفضول , رغم أن أصول الأجسام والمركبات لا تقوم الأجساد إلا بها , وورود أحدها في جسم ما دون جسم آخر لا يولّد اعتبارية فاضلية لتلك الأجسام سوى أن الله تعالى أراد لهذا الكائن أن يكون كذا ...

لقد قابل الحق I لغة التمرد هذه بسعة الصدر ورحابته ؛ إذ ترك مساحة الحوار مفتوحة أمامه , لكن بعد إصرار إبليس (لعنه الله) على التمرد والعناد جاء الخطاب الإلهي كرد فعل لخطاب التمرد القياسي الذي اتبعه إبليس , قال تعالى : ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ...﴾[الأعراف:18].

لقد كان هناك دوافع أساسية قادت إبليس لخطاب التمرد هذا , منها (الحسد , والغرور) وقد برزهما الخطاب بصورة جلية وواضحة إذ حسد إبليس آدم لما خصه الله به , فضلاً عن غروره بأصل مادة بأنه خُلق من نار , والنار _ حسب مدّعاه _ لها قوة الإشراق وسلطان الإحراق , فتجد أن نظرته نظرة قياسية مادة متمردة , فاستحق بذلك اللعن والطرد , وهو أقسى أنواع العذاب , بعد أن كان في مصاف الملائكة.

لقد امتزجت في خطاب التمرد لدى إبليس أمور عدّة منها : طغيان القوى النفسية وحاكميتها على إرادة وإدراك إبليس منتج عن ذلك خطاب مضطرب الاستدلال هزيل البنية من قبله (إبليس) .

2_ التمرد الاجتماعي :

تندرج تحت مظلة هذا النوع أنماط فرعية متنوعة تسير في أفق عمودي لتنتج أشكالاً مختلفة في التوجه ومتوحدة في الأساس , بمعنى أن جميع المظاهر الاجتماعية والسلوكية والثقافية تساعد في تشكيل هذا اللون, ومن أنواعه : التمرد النفسي , والعقدي , والجنسي , والقيمي , الأخلاقي , ... إلخ .

ونظرة واحدة لتاريخ الحضارات الإنسانية تنبئنا أن التمرد سمة بارزة فيها , لاسيما الطابع الاجتماعي وتغاير المجتمعات فكرًا ونمطًا وطريقة حياة , فإذا كانت الحضارة اليونانية قد تميزت بالتميز الفكري والفلسفي , والحضارة الفرعونية قد تميَّزت بالتمرد الاجتماعي الفكري والتشكيلي المعماري , فإن الحضارة اليونانية بالإبداع التشكيلي المعماري والتعبيري إلى جوار التمرد السياسي[29] .

[29]- آفاق التمرد : 17 . مصدر سابق

وعلى طول خط التمرد في الحضارات كان التمرد الديني ملاصقًا ووليد كل لحظة من تاريخ تلك الحضارات , وقد عرض القرآن أنماط ومظاهر التمرد هذا من خلال إبراز طبيعة تفكر الناس وعملهم , ولايوجد فكر دون لغة أو خطاب , فالخطاب المنتج في هذه المجتمعات هو طبيعة ذاتية لسلوكها وطريقة تفكيرها إذ ثمة ما يدعو إلى النظر إلى تلك المجتمعات , وتقسيمها على أنها مجتمعات نص وخطاب , استنادًا إلى النظر إلى منتوجها اللغوي والدلالي فالنظر إلى تلك اللغة على أنها نتاج محدود وثابت يعد نصًّا بينما من ينظر إلى اللغة على أنها عملية تفاعلية استدلالية بين المص وقارئه على أنها (خطاب)[30] .

ومن مخرجات التمرد الاجتماعي هو :

أ_ التمرد السلطويّ :

وهو النوع من خطاب التمرد , قائم على صفات وخصال ينفرد بها دون غيره من الأنماط , ويبرز فيه مسائل عدَّة منها : القيادة , والتحكم , سياسة العباد , فضلاً عن ارتكازه _ في الغالب _ على عنصر العنف والقوة في تدعيم مقام السلطة .

ولعلَّ ما يميّز هذا النوع من الخطاب أنه يقيم لنفسه مكانة تستند إلى جملة من القبليات والمؤهلات التي تساعد على ديمومة بقائه , كافتقاره للإقناع الداخلي , وارتكازه على الاعتراف والإصغاء , وابتعاده عن تسييق الوحدة المعجمية والدلالية للمفردات ؛ لأنه في أغلب أحواله يكون غير حواري , بمعنى أنه يولي الذات المتكلمة (السلطوية) مكانة أولى وأخيرة فقط , فإن معنى الكلام أو قيمته ليست في ذاته وحدها , بل هناك قيمة أخرى تنشأ عند الارتباط بشخص معين تقدَّم أو تأخر[31] .

وقد نقل لنا الخطاب القرآني خطابًا لشخصيات متمردة ارتبط خطاب تمردها بطريقة تعاطيها للخطاب, فليس الخطاب هؤلاء مجموعة مفردة متسلسلة داخل حيّز نظامي خاص بها , بل هي طبيعة تشكل الفكر وأيديولوجيًّا تسلَّطت وفرضت على المجتمعات , إذ تنتقل اللغة أو المكوّن الدلالي _ عند هذه الجماعة _ من مجرد دلالتها المخزونة داخل القالب اللفظي إلى نسق عمل وخطاب نسق , فليست اللغة قائمة من الكلمات تتطابق بشكل بدهي مع قائمة من الأشياء ((وإنما هي وسيط يسمح بإبداع المعاني ويتيح تمرير المقاصد بامتياز , إنها إذن وعد بتكريس الانتماء القائم على تبادل حقيقي , وتفاهم مع الآخر)) [32] .

---

[30]- اللغة والثقافة : 108 . مصدر سابق

[31]- نظرية المعنى في النقد العربي ، مصطفى ناصيف ، 2011 : 99 .

[32]- الكتابة والسلطة ، مجموعة مؤلفين ، 2015م : 506 .

فالمتمردون أصحاب السلطة الذين عرض القرآن صفاتهم وطريقة تفكيرهم عرضهم من خلالها على أقوامهم وأممهم , مستعملين من أجل ذلك كل وسائل الإكراه والإذلال والعنف ((وهي تفعل ذلك لتواري به إحساسها بالنقص اتجاه الآخر , وفشلها ي استخدام كيفيات ووسائل أخرى أكثر مرونة وأكثر فضيلة, ويرجع ذلك في الغالب إلى أسباب سيكولوجية اما في السلطة ذاتها , أو فيما تسقطه السلطة على الآخر مما في نفسها نحوه بأنه مختلف جاهل لا عقلاني)) [33] .

ومن أبرز الشخصيات البارزة في التمرد داخل الخطاب القرآني شخصية فرعون , وقد رسم الخطاب القرآني الملامح البارزة لتلك الشخصية واتصافها بصفات مكنتها من التسلط على رقاب الناس ومنازعة الباري في ملكه وعرشه , وأهم هذه الصفات هي صفة الاستكبار والاستعلاء والاغترار بالجاه والملك , ومنه قوله تعالى:﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾[القصص:39], ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾[يونس:83] , ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الزخرف:51] .

ولعلَّ ما يميز خطاب السلطة عند فرعون هو الاستهانة بالناس وعدم الاكتراث بهم , وهو جزء من العنف الرمزي الذي يمارسه فرعون قبل جنوحه إلى العنف الجسدي , فالعنف الرمزي هو جزء من العنف الثقافي الذي يؤدي وظائف اجتماعية , ويمكن تلمسه في وضعية الهيمنة التي يمارسها أصحاب النفوذ على أتباعهم بصورة مقنعة وخادعة ((إذ يقومون بفرض مرجعياتهم الأخلاقية والفكرية على الآخرين من أتباعهم, ويولّدون لديهم إحساسًا عميقًا بالدونية والعطالة والشعور بالنقص ويخضعونهم لنسق من المعايير والرموز التي تؤكد دونيتهم ووضعياتهم الثانوية عبر عمليات ومشاعر النقص والضعف والافتخار إلى الجدارة والموهبة والشرف والكرامة وضعف تقدير الذات)) [34] .

وقد استعرض القرآن طبيعة المجتمع الفرعوني , وكيف تسلّط فرعون على قومه حتى أذلهم واستخفَّ بهم, يقول الحق : ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف:54] .

وبعد أن استكمل لفرعون نجاحه في الاستخفاف والعنف الرمزي عمد إلى العنف الجسدي والنفسي , إذ انتقل الخطاب من مقام اللفظ إلى مقام الإنجاز والفعل , والقرآن يعرض لنا صورًا لما قدم به فرعون تجاه قومه الذين تمردوا عليه , قال تعالى : ﴿ قَالَ

[33]- سيكولوجية السلطة ، سالم القمودي ، 1999م : 40 .

[34]-الطاقة الاستلابية للعنف الرمزي د .علي أسعد وطفة : 130 .

سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[الأعراف:127] , وهذه القسوة والعنف نتيجة حتمية للذي يتمرد على كل الأعراف الاجتماعية والدينية والأخلاقية , فحيث تواجدت السلطة ظهر العنف رديفًا وظهيرًا لها للذي تتحكم به الأهواء والثروات ((فالسلطة _ حسب فيبر _ هي فعل عنف يهدف إلى إجبار الخصم على فعل ما تريد , وإن الشرط الأساس لوجود العنف هو القيادة)) [35] .

ولا تتكوَّن هذه السلطة ولا تنفذ أنساق خطابها المتمرد بنحو الفردانية المطلقة , بل كان فرعون يمتلك سلطة دكتاتورية لا يمارسها بمفرده , بل بمعية أنصار وأعوان يحاول من خلالهم النفوذ إلى عقول ونفوس الناس , سواء بشراء الذمم أم بالقوة والإكراه , فكل سلطة مستبدة لا تقوم على تفوّق أدوات العنف فحسب , بل وعلى تضامن المستبدين الكبار والصغار ((وحين لا يجد المستبدون من يدعمهم ويصفق لهم, لا يكون هناك مبرر لاستخدام العنف استخدمًا ناجحًا , والحال لا يستمد السلطة قوته ونفوذه من مؤهلاته الخاصة , وأنماط ضعف المجتمع وتمزّق الجماعات وعدم وعيهم وتنظيمهم ووحدتهم)) [36] .

ثم أنَّ هناك مرجعيات متنوعة قادت فرعون لذلك التمرد العنيف الذي مارسه حتى على أقرب الناس إليه _ زوجته آسيا بنت مزاحم _ وقد تضمَّن مرجعيات التمرد عنده مرجعيات عائلية , فقد ذكرت المصادر التاريخية أنه نشأ في بيئة قائمة على القسوة والعنف والذل , ممَّا شكَّل عنده عقدة النقص والشعور بالدونية , فـ ((الفرد مسكون بعقدة نقص فطرية يسعى إلى مرادها أو تجاوزها من خلال التسلط على الآخرين باعتبار أن السلطة حافز يدفع الفرد نحو تأثيره في الآخرين)) [37] .

لقد كان السحرة (سحرة فرعون) ضمن النسق الخطابي لتمرد فرعون على موسى υ فقد كانوا أحد أدواته الفعلية لإيهام الناس بانه إله وأن له جنان ونيران وغيرها , فقد كانوا هؤلاء السحرة يأتون بسحر عظيم سحر عقول الناس وحرفتهم عن الجادة الحق , لكن سرعان ما تحول هذا التمرد بالاتجاه المعاكس , فانتقل تمردهم من السلب إلى الإيجاب بعدما تحقق لهم يقين قطعي من معجزة موسى υ .

فأصبح الرفض والتمرد عندهم عنصر هدم لفرعون وعنصر بناء لموسى υ , وهنا تغاير خطاب التمرد كخطاب نسق عنيف من لدن فرعون , قال تعالى : ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ...﴾[طه:71] , وهنا خطاب العنف الشديد , يقول :

---

[35]- سوسيولوجيا العنف والإرهاب ، ابراهيم الحيدري ، 2015م : 128 .

[36]- المصدر نفسه : 130 .

[37]- سيكولوجية الجماهير ، غوستاف لوبون ، 2004م : 68 .

﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى ﴾[طه:71] , فـ((ليس كل قيمة تستدعي التمرد , ولكن كل تمرد يحتوي ضمًا على قيمة , الحرية قيمة والعدل قيمة)) [38] .

ب_ التمرد العنيف :

للعنف في حياة الإنسان حضور واسع , فلا يكاد أحد يخلو من استعمال العنف أيًّا كان شكله (رمزي أو حقيقي) , وقد اختلف العلماء في بيان هل أن العنف صفة مجبول عليها الإنسان أو أنه صفة عارضة , فمثلاً ((روسو وكارل ماركس كانا يريان أن العنف لا يمثل حالة فطرية طبيعية عند الإنسان , وأن الإنسان خيّر بطبيعته , وأن فساده تقره الحضارة الإنسانية , أما ماركس فقد أرجع القضية إلى جانب الاقتصاد الذي يولد العنف , فوجد أن العنف هو سمة للحالة الاجتماعية أفسدها الاستئثار بوسائل الإنتاج والتنافس بين الناس .. فالتنافس هو صراع بين الطبقات)) [39] .

وأيًّا كان الرأي في أوَّلية العنف فإنَّ عملية أدائه يتحقق أول ما يتحقق داخل اللغة تعدّها وسيلة نقل مثالية , ثم ما يلبث أن تنتقل تلك الخطابات إلى مقام الفعل , فتتحول اللغة عندها درجة الوصف فتبرز وفق ذلك ألفاظ تتلاءم وصور العنف المتعددة , فالتهديد والوعيد والقتل والضرب والغدر , ليست مجرد ألفاظ داخل خطاب التمرد العنفي , بل هي ممارسة وفعل تؤدي بصاحبها إلى إلغاء مساحة الحوار فيتحول الصراع من صراع لغوي إلى صراع فعلي براغماتي واللغة بما هي نظام من الرموز حامل للثقافة تُتيح ذلك التحول ؛ إذ تعد اللغة إحدى وسائل الاتصال المكونة للثقافة , حيث تعمل على إعداد الفرد لكي يتطابق مع القيم والمعايير وأواره الاجتماعية التي تعدها الثقافة[40] .

وقد استعرض القرآن الكريم جملة من قصص الماضين الذين استعملوا العنف بشتى صوره ؛ للقضاء على الخصم والإجهاز عليه ((ولعلَّ من أوائل المتمردين أبناء آدم υ هابيل وقابيل , فإنَّ أول متمرد على وجه الأرض تمرد بشكل فردي هو قابيل بن آدم النبي حيث ارتكب أول جريمة قتل بحق الإنسانية إرضاءً لشهواته وغرائزه , مما أدى به إلى العاقبة الوخيمة بسبب تمرده على الأوامر الإلهية وعدم الرضا بقضاء الله))[41] .

---

[38]- آفاق التمرد : 45 . مصدر سابق

[39]- ينظر : علم النفس الاجتماعي : 217 . مصدر سابق

[40]- ينظر ، علم النفس الاجتماعي : 256 . مصدر سابق

[41]- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، ناصر مكارم الشيرازي ، 2005م : 670/3

قال تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ* لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ* إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ* فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[المائدة:27-30] .

استعرض النص السابق أول جريمة قتل فتحت باب الشر على بني البشر , وقد ركز الخطاب فيها على عنصر التقابل الدلالي بين ذاتين متجاورتين , وبين تلك الذاتين مجموعة شفرات ورموز , وقد عرضها الخطاب بنحو التكثيف المركز .

فالذات الأولى قابيل ؛ ذلك المتمرد على الأعراف والأحكام وحتى على صلة الرحم , وقد تكفل الخطاب بعرض سمات شخصيته من خلال قوله وفعله ؛ إذ يتحول الخطاب لديه من مجرد أن يكون عبارة عن لفظ قرائي إلى فعل تنفيذي بالخارج , وهذا الذات العاصية تمتلك من السلوك العدواني ما يؤلها لتحويل تلك الخطابات إلى خطاب تمرد تداولي بحت , فيكون فعل العنف هو الحاكم على توجيه ذلك الخطاب , فبرز على إثره مصطلحات وأفعال تتواءم وطبيعة تحقق الخطاب وإنجازه في الخارج .

فعلى المستوى التداولي , تكون ألفاظ وتعبيرات العنف تمثل أفعالاً لغوية إنجازية وتأثيرية تؤدي وظائف تداولية معينة , وتسهم في بناء الخطابات العنيفة وتخصيصها بنيويًّا ونمطيًّا[42] .

يكمن في خطاب العنف هذا مستويان للتمرد , الأول : مستوى الشعور , وفيه أن النفس يمكن من خلالها قيادة الإنسان إلى الشر والعصيان والتمرد على الفطرة والنواميس الإلهية , فينتقل إلى المستوى الثاني, وهو مستوى الفعل , فالذات الأولى ضيّقة الصدر ومزاجها العصبي هو المتحكم الأساس بتصرفاتها , تبرز في ضوء لك خطاب التهديد والوعيد ؛ لتكون خاتمة التمرد والعصيان هو القتل , وهو أقسى أنواع العنف غير المبرر .

أمَّا الذات الأخرى المتحاورة فهي (هابيل) , وقد أولاها القرآن وأعطاها مساحة واسعة في الحوار؛ إذ ركَّز الخطاب على الصورة التي أراد أن ينقلها لقابيل وهي صورة المتمرد العاصي , فكانت مساحة حوار قابيل متعلقة بمدى فعله : ﴿ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ... فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ...﴾[المائدة:27-30] .

[42]- لغة العنف وعنف اللغة , بحث . مصدر سابق

يقول ابن خلدون : ((ومن أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان , بعض على بعض فمتى امتدت عينه على متاع أخيه امتدت يده إلى أخذه إلى أن يصده وازع)) [43] .

لقد خطاب العنف مجمل الصفات السلبية والإيجابية لكل من قابيل وهابيل , فالحسد والغيرة كانتا الصفتين المتسلطتين على ذات قابيل الذي بدوره أجهز على أخيه وقتله .

إنَّ قصة ابني آدم υركَّزت على محورين أساسيين هما : الطاعة والمعصية , الطاعة التي تعود إلى جعل الخطاب لينًا ورقيقًا ومحاورة الآخرين بشيء من الاحترام , والمعصية التي قادت النفس إلى الشرور ؛ فجعلت الخطاب قائمًا على الفعل المنجز في الخارج , وبالتالي تحول العنف الخطابي إلى عنف فعلي مُشاهَد في الخارج , فللعنف معنيان هما (السيكلوجي السوسيولوجي) .

فالسيكلوجي : هو سلوك يتسم بالقسوة والشدة والإكراه , تُستثمر فيه الدوافع العدوانية بشكل صريح, كالضرب والتقتيل للأفراد وتحطيم الممتلكات , أمَّا السوسيولوجي , فهو كل ما يربك النظام الاجتماعي والعلاقات القائمة بين أعضائه , وهو كل فعل يؤدي إلى ضرر يطيب الفرد أو يصيب ملكيته[44] .

ونتيجة لفعل القتل هذا سنَّ القرآن خطابًا عامًا لبني البشر حرَّم فيه إزهاق الأرواح وقتل الأنفس , قال تعالى : ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾[المائدة:32] .

ج_ التمرد الجنسي :

خلق الله I الناس كافة أودع في نفوسهم مجموعة من الغرائز تساهم على الاستمرار في هذه النشأة , وقد جعل الله تباركم وتعالى لهذه الغرائز طرقًا لإشباعها يرتضيها العقل والشرع , وتقرها الأعراف العامة , إذ يؤدي الخروج عن هذه الطرق سوكًا سيّئًا ومنافيًا للفطرة السليمة التي أودعها الله في ذلك الكائن (الإنسان) .

وتُعدُّ الغريزة الجنسية من أهم الغرائز النفسية , إذ بدونها تنقطع الحياة وتتوقف , فعن طريقها يتكاثر البشر , وقد حدد الله I آلية تحقق هذه الرغبة وإشباعها بالوسائل الشرعية , والتي كان الزواج البوابة الرئيسة لتحققها , فإنها إن لم تنظم بقانون سيكون لها تداعيات

[43]- مقدمة ابن خلدون ، ابن خلدون : 187

[44]- ينظر ، علم النفس الاجتماعي : 219 . مصدر سابق

خطيرة على المجتمعات , فالمجتمعات القائمة على السماح مجتمعات آيلة للسقوط والانحلال والتفسخ ...

وتُعدُّ الغريزة الجنسية من أقوى الغرائز تمكنًا على نفس الإنسان , ولـمَّا كانت كذلك كان لزامًا على الشرائع أن تنظمها لتحفظ كرامة الرجل والمرأة على حدٍّ سواء .

وفي الخطاب القرآني خطاب جنسي متمرد , فقصة قوم لوط أخذت حيّزًا كبيرًا من حياة الخطاب القرآني , فق شكَّلت قضية اللواط علامة فارقة في تاريخ هذه الأمة, فخرج الناس عن الأعراف المجتمعية الطبيعية وإتيانهم الرجال دون الناس , عبَّر عنه الخطاب القرآني بـ(الفاحشة) ؛ وقد بُني تركيبه فيها على الكناية الدقيقة والتورية العميقة , وهو أسلوب بلاغي عمد إليه الخطاب القرآني أثناء حديثه عن المحذور والمحضور اجتماعيًّا وتداوليًّا , باعتبار أنها تحدث لأول مرَّة في تاريخ العشوب والأمم , قال تعالى :﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ ﴾[الأعراف:80] , وقولهI : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾[النمل:54] , وقوله I : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾[العنكبوت:29] .

يكمن مستوى التمرد في خطاب قوم لوط في حادثة (اللواط) بالدرجة الأساس , فالتمرد الواقع هنا ليس تمردًا على مبدأ الإيمان أو الكفر أو التصديق برسالة لوط υ , وإنما تمرد قائم على الخروج عن الأعراف والتقاليد وعلاقة الرجل بالمرأة , وتركَّزت مبادئ الحوار بين لوط النبي وهؤلاء المنحرفين على ثيمة دلالية شكَّلت بؤرة التمرد عنج هؤلاء , حتى أنَّهم هددوا لوطًا بإخراجه من القرية , قال تعالى : ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[الأعراف:82] , فكان على لوط النبي أن يذكّرهم بالفطرة السليمة التي جُبلوا عليها , وهذا ما نلحظه في خطابه لهم ﴿ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾[هود:78] .

ونتيجة لهذا التمرد الأخلاقي كانت العقوبة الحتمية لهؤلاء الخسف والعذاب الشديد , وجعلهم آية للذي يأتي بعدهم , قال تعالى : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ* فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[الحجر:73-74] .

وملاك القول : إنَّ الانحراف الجنسي ينمو في الظلال الوقائية لجنسانية تربط الجنسي بالإنجاب , واللذة بمناطق معينة من الجسد ... ((لذا فهي تعبر عن التمرد ضد إخضاع قهر الجنسية لسلطان نظام التناسل , وضد المؤسسات التي تكفل هذا النظام ...)) [45] .

[45]- العنف المقدس والجنس في الميثولوجيا الاسلامية .، تركي علي الربيعي ، 1995م : 122 .

الخاتمة

1_ لا تقتصر عملية صناعة التمرد وإمكان وجوده وحدوثه على الصياغة اللفظية باستعمال لألفاظ تناسب مقام التمرد فحسب , بل يتشكَّل (التمرد) وفق نسق التلفظ والتصرف والسلوك .

2_ إنَّ التمرد (الإيجابي) يُعدُّ باكورة البحث ؛ إذ اقتصرت أغلب الدراسات التي تبيّن الجانب السلي في ثورة التمرد , وقد بيّنا أن سبب ذلك هو المعنى القرآني الحاكم على طبيعة تفكّر هؤلاء .

3_ تشترك ألوان التمرد جميعًا بأنها ترفع شعار _ لا _ لكن هذه الـ(لا) تختلف من نمط لآخر ؛ لأنَّ النتائج المترتبة على قولها يستتبعها خطاب متنوع تبعًا للحقل الذي تنتمي إليه تلك الـ(لا) .

المصادر

- آفاق التمرد , قراءة نقدية في التاريخ الأوربي والعربي الإسلامي , فاروق القاضي , المؤسسة العربية للدراسات والنشر , بيروت , ط1 , 2004م .
- ألبيركامي , حياته وأدبه وفلسفته من كتاباته , مورخان لويسك , ترجمة : حسين نديم , دار النهضة العربية , د.ت .
- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل , ناصر مكارم الشيرازي , دار إحياء التراث العربي , لبنان , ط2 , 2005م .
- الإنسان والتمرد , ألبيركامو , ترجمة : نهار رضا , منشورات عويدات _ بيروت _ باريس , ط3 , 1983م .
- التمرد يجادل الواقع , بحث على الانترنت , صحيفة الرأي , نضال حمارنة , 20 / 11 / 2013م .
- التيارات الثقافية الكبرى في القرن العشرين , ميشيال فراجونار , ترجمة : محمد كامل ظاهر , دار البيروني, بيروت , ط1 .
- خطاب السلطة في القرآن الكريم , رسالة ماجستير , رياض كريم عبد الله , جامعة ذي قار , 2014م.
- خطاب السلطة من هوبز إلى فوكو , باري هندس , ترجمة : ميرفت ياقوت, مراجعة : ياسر قنصورة , المجلس الأعلى للثقافة , القاهرة , ط1 , 2005م .
- سوسيولوجيا العنف والإرهاب , إبراهيم الحيدري , دار الساقي , بيروت _ لبنان , ط1 , 2015م .
- سيكلوجية الجماهير , غوستاف لوبون , ترجمة : هام صالح , دار الساقي , 2004م .
- سيكلوجية السلطة , بحث في الخصائص النفسية المشتركة للسلطة , سالم القمّودي , مكتبة مدبولي , القاهرة , ط1 , 1999م .
- علم النفس الاجتماعي , نظريات ودراسات , د.سناء عيسى الداغستاني , دار الرافدين , لبنان , 2017م .
- العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية , تركي علي الربيعي , المركز الثقافي العربي , بيروت , ط2 , 1995م .
- الكتابة والسلطة , سلسلة بحوث دار كنوز المعرفة , عمَّان , 2015م .
- لسان العرب , أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الافريقي (ت711ه) , دار صادر , بيروت , ط6 , 2008م .

- لغة العنف وعنف اللغة , بحث , د. مراد موهوب , كلية الآداب جامعة مولاي سليمان , المغرب , 2013م .
- اللغة والثقافة , دراسة أنثرولغوية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافة العربية , د. كريم زكي , مكتبة الأنجلو المصرية , ط1 , 1986م .
- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة , د. سعيد علوش , دار الكتاب اللبناني , بيروت , سوشبريس _ الدار البيضاء , ط1 , 1985م .
- معجم المصطلحات الأساسية في علم العلامات , دانيال نشاندلر , ترجمة وتقديم : أ.د. شاكر عبد الحميد , إصدارات أكاديمية الفنون , د.ت .
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب , مجدي وهبة , كامل المهندس , مكتبة لبنان _ ناشرون , ط3 , 2010م .
- معجم مصطلحات الطب النفسي , إعداد : د. لطفي الربيني , مراجعة : د. عادل صادق _ مركز تعريب العلوم الصحية , مؤسسة الكويت للتقديم العلمي , د.ت .
- المفردات , الحسين بن محمد الاصفهاني (ت 502ه) , ضبط : هيثم طعيمي , دار إحياء التراث العربي , بيروت , لبنان , ط1 , 2008م .
- مفهوم التمرد عند كامو وموقعه من ثورة الجزائر , محمد تيجاني , ديوان المطبوعات الجامعي , الجزائر , د.ط , 1984م .
- مفهوم الخطاب في فلسفة فوكو , الزواوي بغورة , المجلس الأعلى للثقافة , القاهرة , مصر , 2000م .
- مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، دار ومكتبة الهلال ، ١٩٨٣
- مقدمة في نظريات الخطاب ، ديان مكدونيل ، ترجمة وتقديم :د .عز الدين اسماعيل ، المكتبة الأكاديمية ٢٠٠٦
- من الصمت إلى التمرد (دراسات ومحاورات في الأدب العالمي) , إدوارد الخرَّاط , الهيئة العامة لقصور الثقافة , مصر , 1994م .
- الموسوعة العربية السورية , مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع , ط1 , 1996م .
- النص والخطاب , هابشايد , ترجمة : د. موفق محمد جواد , دار المأمون للترجمة والنشر , بغداد , ط1 , 2013م .
- نظرية المعنى في النقد العربي , مصطفى ناصيف , دار الأندلس , ط2 , 2011م .